الطريقة القادرية كمنهج في التصوف بالجزائر
The way Qadiriyah as a method of Sufism in Algeria.

تاريخ الاستلام: 2019/02/17 تاريخ القبول: 2019/06/19 تاريخ النشر: 2019/06/30

د.عبد الجليل ساقني[1]
المركز الجامعي تامنغست-الجزائر
djalilsocio@gmail.com

د.الصديق تياقـــــة
المركز الجامعي تامنغست-الجزائر
seddiktiaga@gmail.com

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 9/ العـدد 18 -السنة 2019 ص ص 151-172
EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8152

الملـــــخص

الطريقة القادرية هي إحدى الطرق الصوفية التي تميز بها العالم الإسلامي وهي منهج تربوي تعليمي منبثق من تعاليم الدين الإسلامي، سطر معالمه فقيه وعالم ووجد من الأتباع والمهتمين من يسلك منهجه ذاك، والطرق الصوفية عموما هي ظاهرة دينية اجتماعية تم الحديث عنها ودراستها كثيرا من المسلمين وغيرهم من أجل فهم هذا الدين وخباياه خصوصا أن الحديث عن الطرق الصوفية والتصوف يحتاج إلى نوع من التركيز والتأني الدائمين حتى يستطيع القارئ أو الباحث فهم الفعل والسلوك لدى المتصوفة عموما، وسنقتصر في بحثنا هذا على دراسة تاريخ الطريقة القادرية وما هي أسسها وكيف وصلت إلى بلادنا الجزائر.

الكلمات المفتاحية: *الطريقة، التصوف، الطرق الصوفية، الدين، العلم.*

Abstract

In this study, we talk about the way Qadiriyah is one of the Sufi methods that characterize the Islamic world. It is an educational system Resulted from the teachings of the Islamic religion. Its line of features is a Scientist and interested people who follow its path. The Sufis are generally a religious and social phenomenon that many Muslims and others have discussed in order to understand this religion and its mysteries especially that the speech in Sufism requires a kind of permanent focus so that the reader or researcher can understand the act and behavior of the Sufis in general. In this research we study the history of Qadiriyah and how we arrived in our country Algeria and who was behind it.

Keywords: *Method, Sufism, Sufi Methods, Religion, science.*

[1] المرسل المألف : د. عبد الجليل ساقني ، djalilsocio@gmail.com

مدخـــــــل:

إن تاريخ التصوف جزء لا يتجزأ من تاريخ الإسلام، ويلاحظ في تاريخ التصوف أنه قد مر بمراحل وظروف مختلفة واتخذ تبعا لهذه الظروف وتلك المراحل صورا متعددة إلا أن بداياته كانت في حياة الرسول وصحابته، ثم بدأ بعد ذلك تداول اسم ومصطلح التصوف بين علماء المسلمين وصار له معالمه وقواعده خلال القرنين 1-2 هـ و 8-9 م وأصبح له علماء وزهاد متخصصين في علم التصوف نذكر منهم الحسن البصري وكذا رابعة العدوية وإبراهيم بن أدهم وأيضا المحاسبي وأبو منصور والحلاج وغيرهم ممن ظهروا في المشرق العربي متحدين على كلمة التصوف، ولكنهم انقسموا في أنواعه فمنهم من عرف بالزهد ومنهم التصوف السني وآخرون التصوف الفلسفي، وقد كان التصوف في بادئ الأمر متعلق بالفرد وحده ليتجه بعد ذلك للعامة ليصبح عبارة عن تكتل في شكل جماعات، أما المغرب العربي فقد عرف التصوف أوائل القرن الخامس الهجري أو قبله بقليل وذلك في عهد المرابطين.(الميلي، 1989 ص 340)، بعد ذلك دخل التصوف مرحلة أخرى بتأسيس الزوايا كمدارس للعلم، من أجل التدريس الذي يشمل علم التصوف وسلوك كبار المتصوفة وأخلاقهم ثم تحول التصوف من النظري إلى العملي الشعبي لتظهر الطرقية فيما بعد منتشرة في العالم عامة بحيث كثرت أعدادها وتعددت أنواعها وتنوعت مناطق تمركزها بين المدن والأرياف،(سيد حسين، 1975، ص14) وقد استطاعت الطرق القيام بأدوارها الأساسية في مختلف المجالات، وكل ذلك جعلها تحتل مكانة عالية في الوسط الاجتماعي وجعل لمقر الصوفية أي الزاوية إقبالا واسعا من مختلف شرائح المجتمع، وفي هذه الدراسة سنحاول التطرق للطريقة القادرية إحدى الطرق الصوفية العالمية والتي لها اتباع ومريدين كثر في مختلف بلدان

العالم، محاولين بذلك معرفة تاريخها وحقيقتها فهي جزء مهم من تاريخ الثقافة الإسلامية والجزائرية على وجه الخصوص.

أولا- حقيقة التصوف:

1- ظهور التصوف:

يمكننا أن نجد أن البذور الأولى للتصوف في القرآن الكريم والحديث وحياة الرسول وكذا حياة صحابته ومن تبع أولئك الصحابة من التابعين، فأول ما ظهر التصوف إذا في عهد الرسول في جانب التضرع إلى الله والتفرغ له وحده إيمانا وفي جانب الأفعال من صلاة ودعاء وتهجد فقد كان الرسول مجتهدا في العبادة حتى ورمت قدماه فكل أوقاته كانت عبادة من صلاة وزكاة وصوم وعمل متقن ففي كل مكان كان يذهب إليه إلا ويعمل عملا صالحا وصافيا لله عزوجل ورغم هذا فقد نهى من أراد من أصحابه الانقطاع للعبادة وصح عنه أنه قال: « إن الله لا يمل حتى تملوا ».(الميلي 1989 ص340)

ورغم هذا فهناك الكثيرين ممن يقولون بأنهم لم يسمعوا بذكر الصوفية في عهد الرسول وأصحابه ولا فيمن أتى بعدهم و لم يطلق اسم صوفي على أي من أصحاب رسول الله، ولذلك تصدى أهل العلم لهذا التساؤل المستهدف به التشكيك في هذا العلم واتخاذ بذلك ذريعة للقول بأنه عبارة عن بدعة ولا أصل له من الصحة بما أنه لم يكن عند أتقى الناس من قبل وهم الصحابة والتابعين، وقد جاءت ردود الصحابة والتابعين منسقة مع منهجهم في المعرفة فقد جاء رد سراج الطوسي على نحو مفصل يشمل العناصر التالية:

ـ إن صحبة رسول الله شرف لا يوازيه شرف آخر فانتسابهم إلى الرسول هي غاية الأماني لديهم فكانوا جميعا يأخذون من النبي بأقواله وأفعاله وبسننه التي يسنها عليهم فكانوا بعده أئمة الزهاد والعباد المتوكلين على الله.(مراد 1997 ص 485)

ـ ويؤكد الطوسي أن هذا الاسم كان معروفا في زمن الحسن البصري الذي أدرك جماعة من أصحاب رسول الله وقد روي عنه أنه قال: (رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي)

ـ ويذهب الطوسي إلى أبعد من هذا فيقول بأن التصوف قد كان معروفا حتى قبل الإسلام وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح أمثال الحنفيين وأمثال لقمان الحكيم إلا أن التسمية لم تطلق عليهم.

وما يمكن قوله هو أن أقوال أهل الطريقة وأخلاقهم ومراتبهم وآدابهم مأخوذة عن الرسول وأخذها عنه الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والزهاد فكلهم قد عرفوا التصوف سلوكا وإن لم يطلق عليهم هذا الاسم الذي ظهر كاسم عام ومعروف يشير إلى العباد الزهاد والصالحين الذين خرجوا ضد البدع والخرافات في أواخر القرن الأول الهجري(مراد 1997 ص486).

2- مراحل التصوف في الإسلام:

لقد مر التصوف بعدة مراحل تميزت كل مرحلة عن سابقتها بميزات وسمات وملامح خاصة بها، وقد شهدت أحوال الصوفية ترقيا ذوقيا وتطورا فكريا وظهرت أخلاقيات عبر هذه المراحل والتي ندرجها فيما يلي:

ـ المرحلة الأولى: وهي مرحلة الزهد وكانت خلال القرن الأول والثاني الهجريين ولقد سلكها أعلام هذه المرحلة معتمدين على التربية الروحية التي مارسها رسول الله في دعوته وتربيته لأصحابه ومن هؤلاء الرجال الذين ساروا على منهج الرسول

هناك أبو بكر الصديق السابق للتصديق والملقب بالعتيق وعمر بن الخطاب الفاروق ذو المقام الثابت وعثمان بن عفان القانت ذو النورين وعلي بن أبي طالب قدوة المتقين(الميلي 1989 ص341).

وهناك زهاد هذه المرحلة من أهل الصفة من فقراء المهاجرين ومنهم بلال بن رباح مؤذن حضرة الجبار، وسلمان الفارسي الحاكم الحكيم وعبد الله بن مسعود، ومن زهاد هذه المرحلة التابعين مثل الحسن البصري عديم النوم والوسن وأيضا رابعة العدوية رئيسة الناسكات القانتات.

فهؤلاء جميعهم نماذج من زهاد المرحلة الأولى من مراحل التصوف وهي مرحلة مبكرة بدأت مع أصحاب الرسول والذين تلقوا منه علوم الشريعة وعلوم الحقيقة وتأدبوا بأدبه وسلكوا منهجه وورث التابعين منهم هذا الميراث العظيم.

ـ المرحلة الثانية: وتأتي خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ولقد أهتم الصوفية في هذه المرحلة بالكلام في دقائق أحوال النفس وأنفسهم وسلوكاتهم وغلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم وعملهم فصار التصوف على أيديهم علما هاما للأخلاق الدينية.

ونجد من أعلام هذه المرحلة أبو يزيد البسطامي صاحب المعرفة ومالك المحبة حيث كان من جلة المشايخ وأكبرهم وأعظمهم شأنا إلى درجة أن قال الجنيد رحمه الله: أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة، وهناك أيضا الحارث المحاسبي وكان عالما بالأحوال وكان جميع أهل العلم في وقته ذاك يقتدون به ويرجعون إليه، وهناك السرى السقطي وهو شيخ أهل الحقائق و المنقطع عن جملة الخلائق(الميلي 1989 ص340).

_ المرحلة الثالثة: وهي مرحلة التصوف السني وكان إمام هذه المرحلة ورائدها الإمام الغزالي وما ميزها هو رفض ما يتعارض مع الكتاب والسنة والإنكار على صوفية الشطح الذين نطقوا بعبارات الفتنة وكان من أهم علماء هذه المرحلة بالإضافة للغزالي القشيري والملقب بزين الإسلام إمام الأئمة ومجلي ظلمات الضلال وهناك أيضا الهروي الأنصاري وقد احتل مكانا بارزا بين الصوفية الذين تمسكوا بالسنة ورفضوا البدعة وحاربوها.

_ المرحلة الرابعة: وكانت بداية من القرن السادس الهجري وقد تأثر أصحاب هذه المرحلة بأصحاب التصوف السني وكان من أهم أعلامها أبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسي.

_ المرحلة الخامسة: وكانت كذالك إبان القرن السادس وهي عبارة عن التصوف الفلسفي حيث خلطوا بين التصوف وبعض النظريات الفلسفية ومن أبرز علماء هذه المرحلة نجد السهر ودي ومحي الدين بن عربي وعبد الحق بن سبعين(الميلي 1989 ص342).

ثانيا_ رمز التأسيس الأول للطريقة القادرية :

هو الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي ولد بجبال جيلان، بلاد تقع في العراق سنة 470 للهجرة على الأرجح، أبوه يسمى موسى جنكي أبن عبد الله المكنى أبو صالح وأمه أم الخير بنت عبد الله الصومعي الحسيني، دخل الشيخ العاصمة العباسية بغداد سنة 488 للهجرة وهو ابن ثمانية عشرة سنة، فاتجه نحو زاوية الشيخ حماد الدباس الملقب بأبي الخير وهو من أجل مشايخ بغداد وأئمتها في وقته أخذ عنه الشيخ الجيلاني العلم والأدب وهما أسس السلوك والطريق التي توصل إلى حضرة

الحق عز وجل، وتوفي الشيخ حماد سنة 525 هجرية (الطيب،2007، ص.ص05.06)

أما الخرقة الصوفية وهي لباس التبرك الذي يشير إلى صحة الاتصال والسند للمريد إلى لسلة الأشياخ فلبسها من يد القاضي أبا سعيد المبارك وكان الشيخ عبد القادر يتمتع بشخصية فذة ونفوذ روحي فكان يسيطر على قلوب المستمعين أثناء وعظه ويستهوي نفوسهم في التلذذ بحديثه، حتى انه استغرق مرة في كلامه وهو على كرسي الوعظ فانحلت طية عمامته وهو لا يدري فألقى الحاضرون عمائمهم وطواقيهم تقليدا له وهم لا يشعرون.(الحاج الأمين 2006، ص-ص 16- 17)

وبعد وفاة الشيخ ابي سعيد المبارك المخزومي فوضت مدرسته إلى خليفته الشيخ عبد القادر الجيلاني فجلس فيها للتدريس والفتوى، وكانت شخصيته الفذة وحبه للتعليم وصبره على المتعلمين جعلت طلاب العلم يقبلون على مدرسته إقبالا عظيما حتى ضاقت بهم فأضيف إليها ما جاورها من المنازل والأمكنة ما يزيد على مثلها وبذل الأغنياء أموالهم في عمارتها وعمل الفقراء بأنفسهم حتى تم بناؤها سنة 528 هـــ الموافق 1133م وصارت منسوبة إليه. (الحاج الأمين 2006، ص 17)

وكان الشيخ عبد القادر عالما متبصرا يتكلم في ثلاثة عشر علما من علوم اللغة والشريعة حيث كان الطلاب يقرؤون عليه في مدرسته دروسا في التفسير والحديث و المذاهب والأصول واللغة، وكان يقرأ القرآن بالقراءات وكان يفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل و توفي سنة 561 هجرية.

- قرأ القرآن الكريم على يد أبو الفاء علي بن عقيل الحنبلي وكذلك عن محفوظ الحنبلي وغيرهم .

- قرأ الأدب على يد يحي بن علي التبريزي .

- سمع الحديث ورواه من أحمد بن الحسن البقلاني وأبو البركات هبة الله ابن المبارك وجماعة أخرى .

- تعلم الطريقة عن حماد الدباس ويوسف بن أيوب الهمداني، وتعلم كذلك الفقه وأحكام الأصول والفروع زيادة على علوم الحقيقة والانقطاع والخلوة والمجاهدة ومخالفة النفس وكان رضي الله تعالى عنه حنبلي المذهب يفتي في المذهبين الشافعي والحنبلي(الطيب، 2007، ص10)

مؤلفات الشيخ الجيلاني:

- كتاب فتوح الغيب:

يحتوي هذا الكتاب على 78 مقالة في نوع خطب من الشيخ في المواعظ والحكم لمريدي الحق وطلابه، وهذه الخطب خاصة بالصبر على البلاء والرضا والنصيحة للخلق والغنى بالله وما ينبغي للسالك أن يشتغل به وكيفية الوصول إلى الله، يتكلم الشيخ عن معاني المحبة وحقوقها وبعض مفاهيم المعرفة بالله تعالى(الطيب، 2007، ص12) الكتاب يقدمه ولده الشيخ عبد الرزاق الفاضل ويشير في المقدمة عن نسب أبيه وفي الخاتمة عن الوصايا ووفاته وفي الخلاصة فتوح الغيب جوهرة جميلة في قوالب مليحة تنفع الطالب والسالك والواصل، جمعت فيه الشريعة والحقيقة بشواهد القرآن العظيم والسنة الزاهرة الشريفة وفيه كذلك شرح لبعض الأحاديث مثل : دع ما يريبك لما لا يريبك.

- كتاب الغنيـــــــة لطالبي الحق:

هذا الكتاب في مراعاة الحقوق والآداب الشرعية، انه مكون من جزأين **الأول** فيه الأبواب الشرعية من توحيد وصلاة ونوافلها وصوم وأسراره و زكاة و حج، والجزء الثاني مخصص للآداب التي يلتزم بها المريد مع شيخه وإخوانه وفي سفره

وعند السماع، ويتطرق فيه لخصال أهل المجاهدة والعزائم ثم لمقامات ومعاني الشكر والرضا والصبر والصدق(الطيب، 2007، ص13) .

- كتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني:

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة من الخطب ألقاها الشيخ في مجالسه من منبره سنتي 545 و 546 للهجرة، يوجد به اثنان وستون مجلسا في الوعظ والتربية وكيفية التوبة والصبر على البلاء ومحبة الله وإتباع سنة رسوله عليه الصلاة و السلام .

- كتاب سر الأســـــرار فيما يحتاج إليه الأبرار: إنه كتاب قليل الحجم غزير العلم جليل الفهم موضوع لطلاب الشرع والحقيقة والطريقة، يحتوي على أربعة وعشرين فصلا بعدد حروف لا إله إلا الله محمد رسول الله كما يشير إليها في مقدمة الكتاب .

يتكلم فيها الشيخ عن أول مخلوق، وحنان الأرواح إلى موطنها الأصلي كالعروج من عالم الأجساد إلى عالم الأرواح، ويتطرق إلى كيفية دخول المريد إلى الطريق وهي التوبة النصوح وأخذ الأذكار وشروطها ثم شرح الحجب الظلمانية والنورانية ويتكلم عن شرعية الصلاة ثم حقيقتها وشرعية الزكاة وحقيقتها ثم الصوم والحج، وفي خاتمة الكتاب يتكلم عن الفِرَق الموجودة ومن هي الفِرْقة الناجية (الطيب، 2007، ص13)

ثالثا_ أسس الطريقة القادرية:

وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه أسسا قويمة ومبادئ سديدة لطريقته العظيمة التي هي الدعوة إلى الإيمان وإتباع الله وسنة رسوله والحفاظ على أركان الإسلام والتمسك بالفضائل والابتعاد عن الرذائل فقال بهذا الصدد :«

ولأهل المجاهدة وأولي العزم عشر خصال جربوها لأنفسهم فإذا أقاموها وأحكموها بإذن الله تعالى وصلوا إلى المنازل الشريفة » وهي:

_ ألا يحلف بالله صادقا ولا كاذبا عامدا ولا ساهيا.

_ أن يجتنب الكذب هازلا وجادا.

_ أن يجتنب أن يلعن أحدا من الخلق.

_ أن يجتنب أن يدعوا على أحد من الخلق.

_ أن لا يكفر أحدا من أهل القبلة.

_ أن يجتنب النظر الى شيء من المعاصي ظاهرا وباطنا.

_ أن يجتنب احتقار أي مخلوق.

_ أن يقطع طمعه من الآدميين.

_أن يكون متواضعا لله لإعلاء منزلته بين الخلق.

- الصوفي أعماله هي التي تدل على الطريق وليست الأقوال وحدها .

- أما سلامة الصدور فتكون من كل غل وحسد وغش ورياء وطلب رئاسة وكثرة حرص على الدنيا وغيرها من الآفات المهلكة للنفس .

- أما سخاء اليد فهو العطاء والكرم والإيثار بما فتح الله به على العبد من أمور الدنيا إن قل أو كثر .

ويضيف الشيخ عبد القادر الجيلاني:

طريقتنا هذه مبنية على الكتاب والسنة وسلامة الصدور وسخاء اليد وبذل الندى وكف الجفا وحمل الأذى والصفح عن عثرات الإخوان.. الخ. كلامه...، ويضيف قائلا اعلم أيها المحب الكريم وفقنا الله وإياك أن أصل الطريق مبني على كتاب الله عز وجل وفرائضه ثم السنن الشريفة الواردة عن خير البرية ثم الحث على مكارم

الأخلاق التي جاء بها نبينا ليتممها لنا(الملتقى الوطني الثالث للطريقة القادرية ورقلة 2008)

ثم يقول في هذه الوصايا أن التصوف مبني على ثمان خصال وهي : السخاء، الرضا، الصبر، الإشارة، الغربة، لبس الصوف، السياحة والفقر، بعد ذلك عليك بصحبة الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل وعليك بالإخلاص وهو نسيان رؤية الخلق ودوام رؤية الخالق ولا تتهم الله في الأسباب..الخ .

الورد الخاص بالطريقة القادرية:

إن الأذكار والأوراد الموجودة في الطريقة القادرية هي كثيرة حتى قيل أنه يوجد نيف وسبعين طريقا كلها منسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني أصولها قادرية وزاد عليها بعض المشايخ الكبار المجددين حسب مقتضيات عصورهم مع العلم بأنهم أهل إرث وانتساب .

من بين هذه الأذكار الجليلة نذكر منها الورد القادري المشهور عندنا وهو أن يقول الطالب كل صباح ومساء بعد صلاة الصبح والعصر:

* بسم الله الرحمن الرحيم.....100 مرة .
* فاتحة الكتاب ..... مرة واحدة .
* لا إله إلا الله ..... 100 مرة .
* الله..... 100 مرة .
* أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه..... 100مرة .

ثم يدعو بعد ذلك بالدعاء التالي:

_ ثبتنا بقولها وارحمنا يا مولانا بفضلها واجعلنا من خيار أهلها" أمين" ثلاث .

- يا من له هذا الملك والملك الباقي لا تجعل فينا محروما ولا شقيا بجاه محمد السابق اللاحق(الراوي، 2006، ص 205.) .

- يا من لا مثل له في الذات والصفة اغفر لنا ما مضى وأصلح لنا ما يأتي بجاه محمد صاحب الشفاعة .

- الله يا مولانا يا سامع دعانا بجاه محمد لا تقطع رجاءنا .

- الله يا مولانا يا سامع دعانا بجاه محمد تقبل دعاءنا .

- الله يا مولانا يا سامع دعانا بجاه محمد أحفظنا وأرعانا .

- ربي أحيينا سعداء وأمتنا شهداء ولا تخالف بنا عن طريقة الهدى .

- ربي أحيينا سعداء وأمتنا شهداء ولا تخالف بنا عن سنة نبينا .

- ربي أحيينا سعداء وأمتنا شهداء ولا تخالف بنا عن طريقة شيخنا .

- بفضلك يا الله والنبي محمد " آمين يا رب العالمين "والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله صلاة أهل السماوات والأرض عليه وأجري يا رب لطفك الخفي في أمري وأمور المسلمين.....03 مرات .

التحصين القادري :

وهو أن يقول المريد كل يوم بنية التحصن من كل المؤذيات الأرضية والسماوية الإنسية والجنية بعد صلاة الصبح :

- حسبنا الله ونعم الوكيل.....100 مرة .

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.....100 مرة، و أفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد.....100 مرة.

- ربي إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين.....100 مرة .
- الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل..... 06 مرات .
- وفي السابعة يزيد فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ....مرة(مقابلة مع الأستاذ عطاء الله حقيقة، معلم قرآن) .
- ثم يزيد عليه دعاء الجلالة وهو كالآتي :

اللهم إني أسالك بسر الذات وبذات السر هو أنت وأنت هو، احتجبت بنور الله ونور عرش الله بكل اسم لله من عدوي وعدو الله بمائة ألف لا حول ولا قوة إلا بالله ختمت على نفسي وعلى ديني وعلى كل شيء أعطانيه ربي بخاتم الله المنيع الذي ختم به أقطار السماوات والأرض وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين.... مرة. (مقابلة مع الأستاذ عطاء الله حقيقة، معلم قرآن).

رابعا_ المكتبة القادرية بجامع الشيخ عبد القادر الجيلاني:

لقد احتوت هذه المكتبة منذ إنشائها على خزانة كتب حافلة بالنفائس والنوادر من المؤلفات وضع نواتها كل من الشيخ عبد القادر الجيلاني والقاضي أبو سعد المخرمي ثم نمت واتسع نطاق ما تحتويه من كتب في شتى العلوم، وزاد فيها العديد من أهل العلم منهم أبو الحسن علي بن عساكر وكذا الشيخ أبو الحسن مرتضى الحارثي.

وقد كان للنكبات العديدة التي توالت على هذه المؤسسة دور مؤلم في بعثرة كتبها و تشتت ما في خزانتها من موقوفات العلماء والنقباء والسراة، وفي القرن الثاني عشر الهجري بُعثت خزانة المكتبة القادرية من جديد بعد إحياء مدرستها العلمية

وهض نقباء بغداد من ذرية الشيخ الجيلاني بإثرائها بكل ما يقتنوه من الكتب والرسائل وقد كان للسيد علي القادري الأثر الكبير في هذا المجال فقد وقّف جملة ضخمة من نفائس الكتب على المدرسة القادرية وذلك في العقد الثامن من القرن الثاني عشر الهجري ولا تزال طائفة من تلك الكتب محفوظة إلى اليوم(رؤوف عماد، 1974، ص 23.)

ومن الذين تعهدوا خزانة الكتب هذه بعنايتهم الخاصة كان السيد رمضان القادري نقيب الأشراف فقد وقّف عليها كتب ورسائل عديدة لا يزال بعضها موجود إلى الآن، وهناك أيضا السيد سلمان بن السيد علي القادري نقيب الأشراف وكان قد بذل في جمع الكتب الكثير من الجهد و المال حتى انه كان يلجأ في كثير من الأحيان إلى استكتاب ما يعثر عليه من مخطوطات في حال عدم تمكنه من اقتنائها وكان يصحح هذه النسخ بنفسه ويقابلها على أصولها القديمة(رؤوف عماد، 1974، ص 23.)

وهنالك أيضا السيد عبد الرحمان المحض الجيلاني نقيب الأشراف وقد كان له ولع عجيب بجمع الكتب حديثها وقديمها، مخطوطات، مطبوعات، ونفق عليها الكثير من المال وكان يراسل الخطاطين في مصر والشام و المغرب واستانبول لينسخوا له الكتب التي يريدها، كما انه كان يستحضر كميات كبيرة من الورق من الصين والهند لتسد حاجة النساخ في بيته، وجمع مكتبة خاصة بقي منها الآن ما يربو عن ثمانمائة مجلد مخطوط وأربع آلاف مجلد مطبوع وجعلها وقفا على المكتبة القادرية، وقد استمرت الجهود مبذولة نحو توسيع هذه المكتبة فضمت إليها الغرف المجاورة وزيد في عدد كتبها ووفرت فيها المصادر والمراجع ما يعز الحصول عليه وتعظم الحاجة إليه وفي عام 1965م شرع ببناء قاعة جديدة متسعة خاصة بالمطالعة بلغت

مساحتها حوالي مائة وثمانين متر مربع، وشملت كذلك دار الطعام القديمة الشهيرة باسم الشوربخانة وأضيفت إليه ارض بعض الدور الملاصقة كما خصصت هذه القاعة للمطالعين من الباحثين وطلبة الدراسات العالية كما أضيفت إليها قاعات أخرى خصصت لمطالعة النساء.

وقد شيدت هذه المنشآت على طراز إسلامي عربي بديع وزينت نوافذها بشبابيك من الخشب المزخرف الذي يسر الناظرين ويريح المتعلمين والباحثين أثناء تواجدهم في المكان ويشتاقون له أثناء مغادرتهم له، وافتتحت المكتبة بمبانيها الجديدة وقاعاتها في 1967/05/11م ومازالت تؤدي مهمتها الجليلة في خدمة البحث العلمي ورفع مستوى الثقافة والعناية بالثقافة العربية الإسلامية حتى يومنا هذا، و لم يقتصر اهتمام السادة المتوالين على القيام بهذه الأعمال فحسب بل امتد فشمل أمر توفير الكتب النادرة من كل مخطوط ومطبوع وانتقاء ما يفيد الباحثين من مراجع ومصادر في كل علم وفن، وقد كان للسيد يوسف الجيلاني دور خاص في السعي لاقتناء المكتبات الخاصة المرموقة بمحتوياتها النفيسة وأضافها إلى المكتبة، كما سعى أيضا إلى اقتناء المطبوعات الحديثة في مجالات التراث العربي والإسلامي في شتى اللغات والمشاركة في المجلات والدوريات المهمة الصادرة عن مؤسسات علمية في أنحاء العالم(رؤوف عماد، 1974، ص 26.).

ومن الملاحظ أن في خزانة الكتب هذه مخطوطات مهمة عديدة وقفها آهل العلم والفضل على المدرسة القادرية ومن بينهم ملوك وسلاطين وأمراء وعلماء أعلام، ومن الكتب من وقفت على غير هذه المكتبة في مدارس بغداد ومساجدها القديمة ثم انتقلت إلى المدرسة القادرية ومكتبتها حفاظا عليها و رغبة في انتفاع الناس بها

بعد اندثار خزائن تلك المؤسسات وتفرقها، ومن خزائن الكتب المهمة التي انتقلت كتبها الى المكتبة القادرية منها:

1_ خزانة مدرسة جامع القبلانية: ويقع هذا الجامع في سوق الهرج اليوم بالقرب من المدرسة المستنصرية.

2_ خزانة مدرسة جامع الفضل: وهو من مساجد بغداد القديمة و أنشأه غياث الدين محمد بن فضل الله الخواجة

3_ خزانة مدرسة خضر بك: ويقع هذا المسجد في محلة قنبر علي ببغداد، شيده خضر بك سنة 1200 هجري.

4_ خزانة كتب المدرسة الخاتونية: أنشأت هذه المكتبة السيدة عاتكة خاتون بنت السيد علي الكبير القادري الجيلاني.

5_ خزانة كتب السيد يوسف العطاء: وهي من خزائن الكتب الخاصة الغنية بالنفائس والمخطوطات، وقفها على المدرسة القادرية السيد يوسف صلاح الدين بن السيد محمد نجيب بن السيد احمد آل عطاء.

ويبلغ عدد الآثار الخطية المحفوظة في مكتبة المدرسة القادرية زهاء ألف وستمائة مجلد، عدا جملة من الوثائق والإجازات العلمية، وكثير من تلك الآثار سواء المخطوطات أو الكتب القديمة مهم في موضوعه عزيز في بابه، والمشكل انه لم ير لنور النشر سبيلا لحد الآن، كما قام القائمون على المكتبة بتنظيم تلك الكتب والمخطوطات حسب فهرس علمي شامل إحياء لذلك التراث الخالد ولتيسير الاستفادة منها، ولازالت المكتبة القادرية لحد الآن تلعب دورا هاما في التثقيف والتعليم من خلال تلك الكتب العظيمة التي تحويها خزانتها(رؤوف عماد، 1974، ص 30)

خامسا_ الشيخ أبو مدين شعيب القادري:

هو الشيخ أبو مدين شعيب وهو شعيب بن أحمد بن جعفر أو ابن الحسين الأنصاري البجائي وكنيته أبو مدين تكنى بسيدي مدين دفين مصر المحروسة بجامع الشيخ عبد القادر الدشطوطي، وقد ولد سنة 1104م بالأندلس، ونشأ فيها ثم ذهب إلى فاس وتفقه بها وسكنها مدة وقرأ على يد شيوخ عدة منهم الشيخ أبو الحسن بن غالبة ثم توجه للمشرق والتقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني في الحج وصحبه وقرأ عليه الحديث الشريف وألبسه خرقة التصوف وأودعه من أسراره بملابس الأنوار فكان سيدي بومدين يفتخر بصحبته ويعده من كبار مشايخه ولما رجع من حجته وجولاته حل ببجاية وكان يقول أنها معينة على طلب الحلال وكانت ترد عليه الوفود وذووا الحاجات، و كان على اطلاع وعلم غزير ولقد اخذ عليه خلق كثير ونجد حكمه في الفتوحات المكية لمحيي الحق والدين أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن عربي ولقد شارك في الجهاد لتحرير القدس وقطعت يده اليمنى هناك وهي مدفونة في مكان ما يسمى مقام أبو مدين، وقد كانت تزار كما ذكر ذلك الحجاج الذين كانوا يزورون القدس الشريف قبل الاحتلال الصهيوني(بوكليخة، 2006،ص-ص 2-3)

إن الطريقة التي كان يتبناها انتشرت في مصر المحروسة وفي القدس الشريف وأخذها كذلك إلى المغرب العربي وقد أجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأدبوا بأدبه وكثر تلاميذه ومريدوه وذاعت شهرته في كل شمال أفريقيا، وقد استقر الشيخ شعيب في بلدة **بجاية** بالمغرب الأقصى وأنجب ولده مدين هناك فعرف بأبي مدين، وظل يمارس الوعظ والإرشاد في جامع البلدة ومدرستها حتى بلغ الثمانين من عمره وعرف في كل بلاد المغرب، وسمع به أمير المؤمنين أحد

أحفاد الأدارسة، وخليفة المغرب الأقصى في ذلك الوقت وكان موجودا بمدينة تلمسان فأرسل في طلبه(بوكليخة، 2006،ص3) ويقص علينا الإمام عبد الوهاب الشعراني وغيره من مؤرخي الطبقات قصة ذهابه إلى تلمسان فيقول: وكان سبب دخوله تلمسان أن أمير المؤمنين لما بلغه خبره أمر بإحضاره من (بجاية) ليتبرك به، فلما وصل الشيخ شعيب إلى تلمسان، قال: مالنا للسلطان، الليلة نزور الإخوان، ثم نزل وذهب إلى المسجد الجامع هناك، واستقبل القبلة وتشهد وقال: ها قد جئت ها قد جئت، وعجلت إليك رب لترضى، ثم قال: الله الحي ، ثم فاضت روحه إلى بارئها قبل أن يرى السلطان، وبذلك توفي بتلمسان سنة 594هـ، عن عمر يناهز الثمانين، ومازال قبره يزار و بجانبه مسجد سيدي بومدين و المدرسة القديمة(بوكليخة، 2006،ص4)، ومن حكم الشيخ الخالدة:

1_ القرآن نزول و تنزيل فالنزول و التنزيل باقيان الى يوم القيامة.

2_ الحق سبحانه مستبد الوجود والوجود مستمد والمادة من عين الوجود فلو انقطعت المادة لانهدم الوجود.

3_ إذا ظهر الحق لم يبقى معه غيره.

4- عُمرك نَفَس واحد فاحرص أن يكون لك لا عليك.

5_ البصيرة تُحقق الانتفاع.

6- من رزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم.

7_ من عرف الله استفاد منه في النوم و اليقظة.

8_ أضر الأشياء صحبة عالم غافل و صوفي جاهل وواعظ مداهن.

9- من تزين بزائل فهو مغرور.

10_ اللهم فهمنا عنك فإننا لا نفهم عنك إلا بك.

سادسا_ لمحة عن الطريقة القادرية في الجزائر:

من المتعارف عليه أن الطريقة القادرية تنسب إلى الشيخ القطب عبد القادر الجيلاني وإذا حاولنا معرفة أصل القادرية في الجزائر فإننا سنعود إلى أول مؤسس للتصوف السني في بلدان المغرب العربي واعني بذلك أبا مدين شعيب بن الحسين الذي نقل مبادئ القادرية ونشرها في بلاد المغرب العربي وفي غيرها من البلدان، وفيما يتعلق بأبي مدين شعيب فهو اخذ الطريقة ولبس الخرقة على أكثر من شيخ، حيث اخذ التصوف العملي لا العلمي على فضيلة الشيخ أبي يعزى الايلاني واخذ التصوف العلمي على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني وعلى تراث من سبقوه في مقدمتهم الجنيد البغدادي وبذلك يمكن اعتباره بحق شيخ أهل المغرب مثلما دعي عبد القادر الجيلاني بشيخ أهل المشرق(الطيب، 2007، ص14)

كان أبا مدين شعيب يدرس الرسالة القشيرية في التصوف لمؤلفها عبد الكريم القشيري والمقصد الاسنى في شرح أسماء الله الحسنى لمؤلفه أبي حامد الغزالي، وورث طريقته الصوفية القادرية الى تلميذه عبد السلام بن مشيش صاحب كتاب إعانة الراغبين في الصلاة وهو يعتبر شيخ شيوخ الطريقة الشاذلية القادرية وقبل وفاة عبد السلام بن مشيش ورث طريقته الى تلميذه أبي الحسن الشاذلي ومنه انتقلت الى الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي القادري ومنه الى ابنه الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر(الطيب، 2007، ص14) .

وفيما يتعلق بالقادرية يمكن القول أنها أساس ومنطلق كل الطرق الصوفية في الجزائر فالمدينية تفرعت من القادرية والجنيدية تفرعت عن المدينية الشاذلية وعن هذه الأخيرة تفرعت طرق كثيرة منها الدرقاوية والجزولية واليوسفية والعيساوية والشيخية والطيبية والحنصالية وغيرها(احميدة 2003، ص-ص 26-27)...

وإن كانت الشاذلية قد تفرعت عن القادرية إلا أنها أخذت منحى صوفيا يختلف عن المنحى الصوفي القادري، وقد ذهب أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي إلى اعتبار أن الرحمانية مستمدة أيضا من الشاذلية عن طريق الحنفية وكذلك السنوسية أيضا تمتد إلى الشاذلية وتعتبر الطريقتان القادرية والرحمانية أكثر الطرق انتشارا وقوة خاصة حين اتحدتا فيما بينهما وحاربتا التوسع الفرنسي في الجزائر.

ومبادئ القادرية إنسانية لأنها قائمة على حسن التعامل والتسامح مع الآخرين بما فيهم الأجانب، يقول الشيخ القطب عبد القادر الجيلاني في صحبة الأجانب والتعامل معهم " أنهم من أهل السلامة فيتجاوز الله عنهم " ويعني هذا أن ينظر إليهم بعين الشفقة ولا تصادر أموالهم مع الصبر على سوء أخلاقهم(احميدة 2003، ص29).

ومن غير المستبعد أن يكون لأخلاق القادرية دور في دفع الكثير من الأجانب إلى الإقبال على اعتناق مبادئها من ذلك ما حدث للمغامرة إيزابيل ايبرهارت التي كتبت عن الإسلام واعتناقها له وحبها الشديد لحياة البادية والصحراء وعن قيامها بمغامرات في وادي سوف وعين الصفراء وأثناء تواجدها في وادي سوف اعتنقت الطريقة القادرية عن طريق عبد العزيز عثمان صديق محمد الطيب مقدم زاوية الرويسات وآخوه الهاشمي بن إبراهيم وقد أعطيت إيزابيل هناك ذكر الطريقة القادرية والسبحة واللباس الخاص وقد صامت رمضان كذلك(مقابلة مع الأستاذ عطاء الله حقيقة، معلم قرآن).

ومن حرص مريدي الطريقة القادرية إقامة الموسم السنوي الذي يعني من خلاله نشر المحبة بين الناس والتقليل من هموم الدنيا ومشاكلها والتقرب الى الله سبحانه وتعالى وبعث الشعور في نفوس الفقراء بالمساواة الحقيقية والحرية بين كل الناس.

وقد عملت الطريقة القادرية على توحيد قبائل كثيرة و مهدت الطريق للوحدة الوطنية الجزائرية التي تبلورت في عهد الأمير عبد القادر، و لم تدعو القادرية يوما ما إلى سفك الدماء بين أفراد الشعب الواحد بل كانت تؤازر حرية الإنسان وتصون كرامته(احميدة 2003، ص30).

فالطرقية وحدت المجتمع روحيا إلى حد كبير وهو ما عجزت عنه السلطة العثمانية لأن للطرق الصوفية نظاما إداريا يشبه النظم الإدارية للحكومات لذلك العهد ولاسيما فيما يتصل بتسخير الأتباع في استثمار الأراضي والعقارات المحبوسة على زوايا الطريقة، ومن بلاد المغرب انتقلت الطريقة القادرية إلى افريقيا بواسطة القوافل التجارية التي صحبها علماء ودعاة ومنهم شيوخ الطريقة القادرية وبذلك تكون القادرية قد قامت بدور هام في نشر الإسلام الصحيح وتكوين مصلحين أمثال الشيخ عثمان بن فودي القادري الذي يعود له الفضل في نشر الإسلام في افريقيا إذ قام هذا الشيخ بتعليم النساء والرجال و ألف كتاب ـــ تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ مجلس لأجل تعليم النسوان، وبدأ بتعليم زوجاته وبناته مما أهل ابنته أسماء لكي تشارك في أنشطة اجتماعية وثقافية وسياسية وتؤلف عدة كتب إلى درجة أن صار العلماء يعودون إليها، كما أسس الشيخ عدة مساجد ومدارس ومعاهد وكتاتيب قرآنية وتوفي في 1817م(احميدة 2003، ص31).

وكان الشيخ عثمان الفودي على المذهب المالكي وأعلن الجهاد في سبيل الله سنة 1802 وبايعه أتباعه أميرا للمؤمنين فأسس بمساعدة من حوله من القادريين دولة كبيرة في بلاد الهوسة ونيجيريا واستمرت دولته قوية ما بين سنة 1804_ 1904م.

خاتمة:

إن الطريقة الصوفية هي منهج في الحياة وهي بمثابة مؤسسة ومدرسة تربوية تعليمية أساسية في مجمعنا المسلم تساهم في عملية التنشئة الاجتماعية ونقل الموروث من جيل لآخر وبالتالي المحافظة على مقومات المجتمع و هويته.

وفي الوقت الراهن وفي خضم التحولات السياسية والمادية السريعة يبقى المجتمع بحاجة إلى الزوايا بطرقها ومناهجها المعتدلة وأن تواصل تعليمها وتوعيتها للمجتمع لأن هذا الأخير أحوج ما يكون إلى البعد الروحي ليحقق توازنه واستقامة أحواله، ولا يمكن أن يحقق ذلك إلا التربية الروحية الصافية التي تُنمي الإيمان في النفوس وتُرسخ فيها العقيدة والأخلاق، تربية تزرع في القلوب محبة الله ومخافته وتغرس فيها حب الخير والعلم والعمل والوطن أجمع.

المصادر والمراجع:

1) الميلي مبارك،1989 تاريخ الجزائر القديم و الحديث،ج2، المؤسسة الجزائرية للكتاب، الجزائر

2) الطيب نوري،2007 الرسالة النورية في الطريقة القادرية، دار الكتب العلمية للنشر، لبنان

3) الحاج الأمين محمد،2006 مقال من مجلة الصوفية،(عبد القادر الجيلاني) ، العدد 2، افريل

4) الراوي إبراهيم،2006 السير و المساعي، دار التقوى للطباعة و النشر، دمشق- سوريا

5) بوكليخة لامين عبد الواحد،2006 حكم سيدي بومدين شعيب و ابن عطاء الله السكندري، الجزائر

6) مراد سعيد،1997 الفرق والجماعات الدينية في الوطن العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة

7) ملخص عن الملتقى الوطني الثالث للطريقة القادرية،15/13/ماي2008 التربية الروحية في الطريقة القادرية بالزاوية القادرية بالرويسات وجامعة قاصدي مرباح.

8) مقابلة مع الأستاذ عطاء الله حقيقة، معلم للقرآن الكريم بالزاوية القادرية، ورقلة يوم 2010/02/11

9) نصر سيد حسين،1975 الصوفية بين الأمس واليوم، الدار المتحدة للنشر لبنان

10) عميراوي احميدة،2003 رسالة في الطريقة القادرية في الجزائر، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع عين مليلة، الجزائر.

11) رؤوف عماد عبد السلام،1974 الآثار الخطية في المكتبة القادرية، مطبعة الرشاد، العراق